عدد **14** ديسمبر(2000)، 97-110

الاستثناء الثقافي بين محاولات تجاوز التخلف و تكريسه

ملخص

من بين النتائج الكارثية لإهمال و التجاهل الكلي لمطلب شعوب العالم الثالث، و حتى بعض شعوب العالم الغربي ذاته، الذين لا يشاركون في لعبة الليبرالية و التنافس لحر في جميع المستويات.

لهذا نقترح مناقشة الموضوع الجديد الذي هو الاستثناء الثقافي و الذي لا يعني دعوة إلى العزلة التامة للشعوب المسحوقة من طرف العولمة، لكنه مشروع عمل ضد سلطة الهيمنة الأمريكية على كل الأصعدة أي ضد الأمركة، و هو يقترح بقوة استثناء أو المنتوج الثقافي من الاتفاقات التجارية للغات (GAT) .

هذا الاستثناء الذي يفرض الأهداف و التصورات التالية:

1-احترام الخصوصية الثقافية و التنوع الثقافي و المحافظة عليهما كرصيد إثراء للحضارة الإنسانية الواحدة.

2-إعطاء الفرصة للثقافات المتنوعة للتعبير عن نفسها عبر القنوات الضخمة لوسائل الإعلام العالمية.

3-وضع حلول جذرية لتهديدات وسائل الإعلام العالية للقيم التي اتفقت عليها الثقافات جميعها، مثل الديمقراطية و الحرية و حقوق الإنسان...الخ.

د. مجدي عبد الحافظ
قسم الفلسفة
جامعة حلوان (مصر)

إن النقلة التي يمر بها العلم اليوم، و هي مازالت في حالة الحركة، تهيب بنا النظر في حال واقعنا المحلي لتفهمه حق الفهم بشكل يرصده في ميكانيزماته الداخلية الواقعية، و ليس بشكل تخلع فيه على الواقع أوهامنا أيا كانت تاريخية تراثية في الماضي، أو مستقبلية حداثية في المستقبل. و في نفس الوقت نرصد الواقع العلمي في تجلياته الواقعية و آليات حركته في دوافعها الأصلية المرتبطة بالظروف الموضوعية، وليس كما نرد أن نراه من خلال نظارات لرناه بألواننا المفضلة التي تتماشى مع ما نريد أن نراه فحسب، غلاضين النظر عما عدا ذلك. هنا تصبح جدلية الربط بين الواقع المحلي في حقيقته، و ما يحدث في الواقع العلمي ذات دلالة يمكنها أن تفسر، دون تضخيم أو تهوين. كثير من الأحداث بموضوعية

Résumé

Dans cet article, l'auteur propose un projet de travail contre la mondialisation à travers l'ouverture d'un débat sur un thème nouveau qui est "l'exception culturelle". Celle-ci ne suppose pas l'acheminement vers la marginalisation des pays du tiers monde et de quelques pays du monde occidental qui ne participent pas au jeu de la libération de l'économie et des échanges, mais elle vise les objectifs suivants:

- le respect des spécificités et des

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر2000

diversités culturelles en tant que richesse de la civilisation humaine.
- permettre aux diversités culturelles de s'exprimer par le biais des médias internationaux.
- trouver des solutions radicales face aux menaces des médias internationaux qui touchent les valeurs humaines universelles (liberté, démocratie, droits de l'homme, etc.).

نسبية، مفيدة –على الأقل- في إلقاء الضوء على كثير مما يحدث في عالمنا المحلى و الدولي.

حقا لقد سأمنا من تلك التفسيرات أحادية الجانب، و التي تلقى بأزرار واقعنا المحلى جميعها على الخارج وحده، و كأن الداخل هو ضحية لتلك المؤامرات التي تحاك له على المسرح الدولي في كل مستوياته، أو تلك التي حمل الداخل وحده كل الأوزار، و كأنه جزيرة منعزلة لا تؤثر و لا تتأثر بما يجري حولها من أحداث في العالم. و عندما نطرح هنا الاستثناء الثقافي كموضوع للبحث فإننا نخشى أن يفرغ التعبير من محتواه. بحيث يستخدمه الأصوليون الدينيون في أي مكان و من أي دين، و الأصوليون الغربيون في أي مكان و من أي مذهب كمبرر يقضي على وحدة الحضارة الإنسانية، و يفرض من دعائم الحوار الإنساني الممتد.

فيعمق هذا المسلك من كلا الطرفين القطيعة، و بالتالي يكرس تخلف بلدان العالم الثالث و يبقيها على ما هي عليه بحجة الاستثناء الثقافي، محيكرا أيضا العلم التقني و الترشيد و التقدم المادي بحجة أنها تشكل الركن الركين من ثقافة الغرب.

و الاستثناء الثقافي الذي نقصده يستند بادئ ذي بدء على أن الحضارة الإنسانية حضارة واحدة و ليست ملكا لأحد، أسهمت فيها جميع شعوب الأرض بدرجات متفاوتة، و من هنا فهي ليست حكرا على أحد. و أن داخل هذه الحضارة تعيش ثقافات متعددة و متباينة في مصدر الثراء الدائم و المتجدد لهذه الحضارة. فالحضارة العربية الإسلامية في القرون الوسطى إذن لم تكن إلا حضارة الإنسانية جمعاء ، شاركت ثقافات العلم أجمع في الوصول إليها المصرية و الفينيقية، و الكلدنية، و البابلية، و الأشورية، والفارسية، و اليونانية، والهندية، و الصينية، و الرومانية...الخ، و في العصر الحديث فإن الحضارة الغربية الحديثة هي بنفس القدر حضارة الإنسانية جمعاء، شاركت في الإعداد لها و قيامها ثقافات الشعوب في كل مكان.

1- الاستثناء الثقافي:

و الاستثناء الثقافي Exception Culturelle، تعبير أخترعه مثقف فرنسا منذ قريبة ليتصدر الاتفاقيات الجات التي فرضت على أوروبا، خاصة فيما يتصل بالجانب الثقافي و الفني –على وجه التحديد. فأغلب دول أوروبا تعاني أيضا، مثل بقية بلدان العالم و لو بشكل نسبي –من الاحتكار الثقافي الذي تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية على العالم. و إذا كان تعبير الاستثناء الثقافي ولد حديثا، إلا أن الغزو الثقافي الفني الذي تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية على الساحة منذ سنوات بعيدة، خاصة فيما يتصل بالسينما الأمريكية، و كذلك الأغنية، و فنون أخرى يروج لها بأوروبا، بل و تحقق أحيانا نجاحات أكبر مما تحققه في أمريكا ذاتها. و أخطر هذا الغزو يتمثل في نمط الحياة الفرنسية، خاصة عندما أصبحت الهيمنة الأمريكية على الثقافة الفرنسية هيمنة تتعلق بالبنية، و بخلق أنماط أمريكية في الاستهلاك لم يكن يعرفها المواطن الفرنسي، الذي

أصبح سوقه مفتوحا على مصراعيه في منافسة خطيرة على الذوق الفني.. و يلخص جاك تيبو Jacques Thidau هذى الحالة في كتابة فرنسا المستعمرة (بفتح الميم) بقوله لقد أصبحت فرنسا الآن تحت نير الاستعمار، فطريقة الحياة الأمريكية بلغت إلى أعماق المجتمع الفرنسي بالذات إلى عقله و حساسيته وفكرة. وحديثا يتساءل كريستيان كومباز Christian Compaz عما إذا كانت فرنسا قد باعت روحها للأمريكان؟ ونوجه الكاتب خطابه لزميل مجرى يستخلفه فيه بإنقاذنا من الطاعون الموحد الذي دمرنا تقريبا، ويهدد بدوره البلدان التي تحلت عن الشيوعية. هذا الطاعون الذي يهاجم الذكاء ، و يبتلع الثقافات باسم نزعة عالمية، و بالتحديد نزعة عالمية أمريكية. ويحلل كومباز في لغة ساخرة أعراض المجتمع العربي الراهن في مجالات النشر و السينما و التلفزيون. و يتطرق للعادات، و يتوجه لحدثه مستنجدا و أنتم الذين لم قد سرقتم بسنوات الشرعية، ساعدونا على المقاومة، حيت يرى المقاومة تصبح أهم كلمة في طاعون يتغدى على التواطؤات. و يتحرك بالإبهار. و يكشف عن دور وسائل الإعلام في تنميط رأى الناس، و الدفع بالأكاذيب باسم الحرية (1) و يحدد ألان تورين أزمة مجتمعاتنا الحالية في الشريكات عابرة القارات. و في ظهور الاستهلاك الضخم المتبرع بوسائل الإعلام الضخمة التي أدخلت في حياة الناس، عالم الرغبات و الخيال، مما أضر بالنزعة العقلانية الحديثة، وأدى لانفجار الحداثة، خاصة عندما تخلى المجتمع عن كل مبدأ للعقلنة سواء كانت توظيف كسوق أو لا تحديد إلا بهوية تاريخية. و عندما لم تعد الفاعلون إلا مراجع ثقافية مشتركة أو شخصية. ويعترف تورين بأنه لاشك أن هناك تغيرا جذريا قد تم لصالح المجتمع اللبرالي، و انعكس بأثره على التركيبة الكلاسيكية لليمين و اليسار، بحيث لم يعد اليمين بدافع عن أناس في أعلى السلم الإجتماعي، و لكن في مقدمته، و يضع ثقته في إستراتيجية لتقليل التكلفة الاجتماعية لتغيير، و اليسار الآن يدافع عن المهمشين أكثر من دفاعه عمن في أسفل السلم الاجتماعي، و أصبح أكثر حساسية لعدم المساواة المتنامي بين الشمال و الجنوب وإلى التهديدات التي تؤثر على كركب الأرض و إلى التهميش العديد من المستويات الاجتماعية و الثقافية.

هذه المعاناة الشديدة، و التي يعاني بعض بلدان العالم الغربي اليوم مثلنا تماما ويلاتها، جعلت الفرنسيين يطالبون بما أسموه الاستثناء الثقافي، و المعني أن يتم استثناء المنتج الثقافي من اتفاقيات الجات التجارية و التي تفتح الأسواق للمنافسة الحرة في العالم.

إلا أن دعوتنا للاستثناء الثقافي لا يفهم منها الانكفاء على الذات، و غلق النوافذ و الأبواب، فهذا التصور يتناقض مع ما أسلفنا توا من أننا نعتبر أن الحضارة الغربية الحديثة هي حضارة الإنسانية في عصرنا اليوم. الاستثناء الثقافي الذي ندعو له دعوة مفتوحة توجه في المقام الأول لدول العالم الثالث و الدول الغربية المتضررة مثلنا ، لنبني هذا التصور بشكل جماعي، لتستطيع أن تتفاوض و تضغط على الولايات المتحدة للقبول بهذا الاستثناء الذي يفرض الأهداف و التصورات التالية:

احترام الخصوصية الثقافية و التنوع الثقافي و المحافظة عليهما كرصيد إثراء للحضارة الإنسانية الواحدة.

إعطاء الفرصة للثقافات المتنوعة للتعبير عن نفسها عبر القنوات الضخمة لوسائل الإعلام العالمية.
وضع حلول جذرية لتهديدات وسائل الإعلام العالمية للقيم التي اتفقت عليها الثقافات جميعها، مثل الديمقراطية و الحرية و حقوق الإنسان...الخ.
العمل على إقامة إنسان فكرية و عملية و تنظيمية على المستوى الدولي من أجل تجسيد العدالة و الحرية –ذات المعيار الواحد- لكل ثقافات العالم بإكفال الحاجات الأساسية للحياة في ربوعه المختلفة.
تجنيد كل القوى الحية في العالم من أجل النضال ضد التهميش و الاستغلال الفردي و الجماعي في العالم.
العمل على خلق تجمع ثقافي دولي بعيدا عن المؤسسات الرسمية، حتى تتوفر له ضمانات الحرية و الإفلات من الضغوط، يضم ممثلين لمناطق العالم المختلفة يكون بمثابة برلمان دولي تنحصر مهمته في خلق مناخ ثقافي يقوم على التعددية الثقافية و قبول الآخر و التفكير معه للإسهام المشترك في تجسيد أخلاق كونية تتعامل مع إشكاليات البيئة، و البيولوجيا، و الهندسة الوراثية، وحقوق الإنسان بمعناها الواسع و الشامل، و إشكاليات ثروة الاتصالات و المعلومات، و إشكاليات الحداثة في كل ثقافة على حده.
والملاحظ في تصوراتنا تلك إنها لا تفصل الثقافي عن الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي، إذ أن نعتبر أن الثقافة هي نتاج لكل تلك التفاعلات الجدلية في مجتمع ما. و لعلنا سنجد في ظل التصورات السابقة بعض الحلول التي يتوق إليها الإنسان، فمثلا، سوف يعمل تعبير الثقافات عن نفسها عبر القنوات العالمية على نزع فتيل الصراعات القومية، ويخفف من حدة إحياء الهوية الثقافية و التي يصاحبها غالبا العنف. كما سيعمل هدف وضع الحلول الجذرية لتهديدات وسائل الإعلام العالمية للقيم الإنسانية العظمى، و المتفق عليها بين الثقافات، على تكريس و نشر تلك للقيم الإنسانية العظمى، و المتفق عليها بين الثقافات، على تكريس و نشر تلك القيم الرفيعة، فوسائل الإعلام العالمية الحالية تسلك عكس القيم السابقة حينما تكثف حملاتها على رأى و منحنى معين مما من شأنه تعطيل الديمقراطية و إلغاء الحرية في الاختيار و حرية الإرادة و في نفس الوقت فهو سلوك ضد حقوق الأساسية التي أقرها المجتمع الدولي للإنسان. كما أن هدف إكفال الحاجات الأساسية للحياة لكل إنسان يعيش على الأرض سيعمل على خلق حياة أخرى تقوم على الحب و الإخاء والكرامة بين الشعوب و هكذا في سائر الأهداف.
من هنا فالاستثناء الثقافي –كما رأينا- لا يعني انغلاق الثقافة و انكفائها على ذاتها و لكنه يعني في المقام الأول التفاعل الخلاق مع الثقافات الأخرى، لمد الحضارة الإنسانية بروافد جديدة و متجددة حتى لا ينضب معينها، و في نفس الوقت هي الأصوات النافذة التي تعمل على تصويب مسار تلك الحضارة إذا ما اعتراها ألغى و الزوغان، لذا تظل تلك الثقافات هي الضمير الحي للحضارة الإنسانية الواحدة و الأصوات المعبرة عما هو إنساني في مقابل نزعتي التقنية و العقلانية الأداتية وهما من أمراض الحضارة الغربية اليوم.

لذا فإن عصر الاستعمار الذي قهر الثقافات المحلية بالعدوان و التحجيم و الردع و الدمج يظل في نظرنا مسؤولا عن المأزق الذي تعاني منه الحداثة اليوم، حيث حرم هذه الحداثة المتمثلة في الحضارة الغربية من أهم مصادر تجددها الذهني و الذي يعتمد في الأساس على تلك الانتقادات التي تصيغها الثقافات الأخرى.

2- الحضارة الإنسانية الواحدة

إذا كنا نستطيع التمييز بين الحضارات المختلفة القديمة بحكم تباعدها و عدم اتصالها جغرافيا و تاريخيا فإن معطيات الجيوبوليتيكا الحديثة، و ثورة الاتصالات التي ألغت الحدود بين الدول و الشعوب، وإشكاليات البيئة التي ربطت بين بقاع الكوكب ووحدة مصير سكانه، عملت على سيادة حضارة واحدة. كان ينبغي لها أن تكون ملكا للبشرية جمعاء و ليست حكرا على أحد، إذ ساهمت جميع شعوب المعمورة من أقصاها إلى أقصاها في تشكيلها بالجهد و العرق و الدم، وبالعلم والمال، بل دفعت شعوب العالم الثالث-وحدها- و مازالت تدفع منذ القرن الثامن عشر القدر الأكبر من فاتورة هذا التقدم الهائل بوسائل مختلفة، بداية من النهب و الاستعمار الذي مورس عليها، وصولا إلى الإجبار و الإذعان المفروض عليها الآن من قبل الدول الكبرى من خلال نظام أعدته سلفا، يحافظ على المستوى المتقدم الذي وصلت إليه الحضارة الغربية في بلدانها، في نفس الوقت التخلف و التراجع الذي تعانيه شعوب عالمنا الثالث.

يرفض بعض مفكري العالم الثالث مقولة الحضارة الإنسانية الواحدة بحجج شتى البعض يربطها بالتبعية، و البعض الآخر يربطها بالتغريب، كما يربطها البعض بظاهرة الغزو الثقافي. و تظل الخلفية التي تقبع وراء الجميع في مواقفهم تلك، وهي ربط حضارة الغرب اليوم بمظاهر الإكراه و الضغط على شعوبنا للقبول بما لا يمكن قبوله، و هذا صحيح، إلا أن الوجه الآخر من تلك الخلفية يمكن في التردي و التخلف و الانسحاق الذي تعانيه في مقابل هذا الغرب المتقدم. و بدلا من التفكير و العمل الجاد بأخذ أسباب التقدم الغربي المعتمد على الحداثة و التحديث، نرى هذا البعض يرفض تلك الحضارة الغربية قلبا و قالبا كرد فعل انفعالي أكثر منه موقفا مفكرا فيه، وبهذا يختلط الأبستمي بالأيديولوجي، وتضيع في خضم هذا الخلط الموضوعية العلمية، و حجية المنهج مسفرة عن وجه يخلط بين الوطنية و العلم، والدين و الجغرافيا، والحضارة و الثقافة، والاستعمار و التنوير و الحداثة و القضاء على الخصوصية فهل فعلا تشكل الحاثة و التحديث خطورة على الخصوصية و الهوية و الثقافة الوطنية؟

3-الحداثة الغربية و الخصوصية:

تتأسس الحداثة على الحضور الدينامي و الفاعل للذات في العالم، و لا تتأكد الهوية إلا من هذا الحضور الإيجابي و الراعي للذات. و الذي يفسح مجالا واسعا للعقل و للعقلنة و هو القاسم الإنساني المشترك، والذي لا يعترف بهوية أو بخصوصية منغلقة على ذاتها. العقلانية إذن هي المقدمة الأولى لتأكيد و تحقيق الذات و الهوية. فإذا ضربنا

مثلا بالوحدة العربية التي أخفقت نجد أن إخفاقها يعود إلى أنها قامت دائما على أسس انفعالية و وجدانية، ولم تستند على العقلانية التي تلزم وجود مصالح نفعية و حقيقية تعود على الشعوب العربية من جراء الوحدة مثلما تم في الوحدة الأوروبية العقلانية و الترشيد إذن هما مفتاحا الحداثة، ودونها يظل المجتمع تقليدي و أي خصوصية و هوية وطنية تستبعدهما محكوم عليها بالفناء و الاندثار، أي إنكارهما يعني انتحار الذات و تلاشيها. و إذا تحجج البعض بالنزعة العرقية الأوروبية Euro-Centrism التي تهمش خصوصيتنا، فنحن نرى أن تلك النزعة هي وليدة ما يسمى Ego-Centrism و هي نزعة التمركز حول الذات ، فقد مارست كل حضارة كان لها لغلبة في عصرها، هذا التمركز كل و من بينها الحضارة العربية الإسلامية ذاتها، حينما قاست على إيمانها و إسلامها مدى كفر و إيمان الحضارات الأخرى و حينما اعتبرت غير العربي أعجمي، و هذا وضع طبيعي فالحضارة القوية تفرض تصوراتها ورؤاها من خلال أبنائها أو من خلال الشعوب الأخرى التي تستسلمها و هو ما حدث حين امتد التأثير العربي الإسلامي عبر البحر إلى الشمال ليعطى رؤيته الرشيدية العقلية إلى أوروبا العصور الوسطى، يعطي إليها منحاه العقلي و التجريبي في العلوم، يومئذ فهم المحدثون الغربيون أن المسألة هي موت أو حياة لأممهم، و قاموا اتهامات الكنيسة لهم بالزندقة و الكفر و الرشيدية و اليوم هل نستطيع الإدعاء بأنهم أصبحوا غرباء أو تركوا غربتهم أو فقدوا خصوصيتهم؟

إن التفكير الذي يعمق الهوة بين الأنا و الأخر، لهو تفكير يعاني من عقد النقص مضاعفة و مركبة و يحاول عن طريق التناول الفكري التخلص من هذه العقد بتعويضه إياها بأفكار تعمل على الانتقام و الثأر بدلا من التفهم و التفاعل متناسيا أن وجود الأنا يفترض دائما وأبدا وجود الأخر و العكس صحيح إذ كيف تتعرف الأنا على تفوقها بغير المقارنة مع آخر؟ فالحضارة العربية الإسلامية لم تعرف أنها وصلت إلى أوج قمتها سوى بمقارنة ما حققته على أحوال الغرب الأوروبي في القرون الوسطى، يظل إذن التردد نحو الأخذ بمفاهيم الحداثة الغربية خشية فقدان الهوية أو الذوبان في الغرب بحجة أن مجتمعنا مختلف لهو مقدمة أولى للشوفينية، و في نفس الوقت معوق حقيقي لانطلاقه الأنا إلى أفاق جديدة و مستقبلية، خاصة إذا كان هذا الأخذ يتم لحساب الأنا و لحساب النهوض بها من عثرتها، و من هنا تصبح الخطورة الحقيقية على الهوية و الخصوصية في رفض التحدث.

4- النمو و التحديث:

هل يمكن تحقيق النمو خارج إطار التحديث؟

يصدر البعض، بل و يجزم على ضرورة تحقيق النمو الذاتي بعيدا عن التحديث. و نحن لا ننكر ضرورة النمو الذاتي، بل إليهما بواقعية شديدة واضعين في الاعتبار التحولات التي طرأت على عالمنا اليوم، و من هنا فنستخلف على دلالات مصطلح الذاتي بحيث سيعني لدينا النمو الذاتي، النمو الذي يمكن لدول العالم الثالث أن تحققه

فيما بينها بالاعتماد المتبادل، لأن التسليم بمصطلح الذاتي في معناه الضيق قد تجاوزه العصر، كما أن النمو بعيدا عن التحديث يعتبر إنكارا لمجمل التفاعل الحضاري الذي تم عبر العصور التاريخية المختلفة، و يستند على وهم أن هناك قطيعة بين الثقافات أو بين الحضارات عبر التاريخ، وأن كل حضارة هي جزيرة منعزلة أو هي نتاج منفرد و مغلق على ذاته أنتجه أصحابه، و هو تصور ضد الواقع و التاريخ معا. إضافة إلى أن حقائق عالمنا اليوم قد تغيرت رأسا على عاقب، خاصة في السنوات الأخيرة، كما أنها رؤية تخلط كل الأوراق و يظهر كل ما أنتجه الغرب فيها على قدم المساواة: الحداثة و الاستعمار و استغلال الشعوب، والتحديث و الاندماج في السوق العالمي...الخ، و إذا أحتج بأن عودة الغرب لأصوله كانت سبيلا لتحقيق نهضته و حداثته، و من هنا فعلينا عمل نفس الشيء و هو العودة لأصولنا، هنا نلفت الانتباه بأن عودة الغرب لأصوله كانت مفتوحة على العقلانية اليونانية –الرومانية بينما تعني عودة أصولنا الأصول عودة اختزالية و انتقائية تستبعد العقل و العقلانية. مع أن كل هذا لا يمكنه تغيير الحقائق الموضوعية في عالمنا اليوم، و التي تتأكد يوما بعد يوم، مؤكدة على المصير الإنساني الواحد، وهو ما يتمثل في المستجدات التالية:

5- ثورة الاتصالات:

أدى اختراع الحاسب الآلي بأجياله المتعاقبة أن تصبح المعلومات و إنتاجها أهم ما يميز مجتمعات اليوم. وأصبحت المعلوماتية هي كلمة السر لمستقبلنا، خاصة في ظل إمكانية الحصول عليها بكل سهولة ويسر عن طريق الأنترنيت، وإمكانية المشاركة الفعلية في إنتاجها، والتخاطب من خلالها مع أكبر المراكز البحثية والثقافية في العالم، والاتصال الجزئي بأي حاسب شخصي آخر في أي من قارات العالم، و مع انتشار أجهزة الفاكس. والأقمار الصناعية للبث التليفزيوني عابر القارات والحدود والمنفلت من أي رقابة، يمكننا إدراك عمق الثورة التي أحدثتها تلك الوسائل خاصة فيما يتصل بالوصول إلى التأثير في صميم ثقافات وعادات و قيم المجتمعات الوطنية والمحلية، وهو ما جعلنا نطالب في إطار مبدأ الاستثناء الثقافي بإعطاء الفرصة للثقافات المتنوعة للتعبير عن نفسها عبر تلك القنوات الضخمة. و لعل هذا لا ينفي أن ثورة الاتصالات قد فرضت على الجميع وعيا كونيا جديدا، بحكم أن العالم أضحى بالفعل قرية صغيرة من زجاج، لا تخفى فيه خافية على أحد بفعل تلك الشفافية –ربما المقصودة والتي لا تخلو من الإيديولوجيا- التي حققتها كاميرات البث التليفزيوني الكوني، مما أصبح معه فكرة الانغلاق على الذات ضرب من المستحيل وسط عالم يموج بمخترعات جديدة كل يوم، تصب في معين ثورة الاتصالات المتجددة.

6- الإيكولوجيا ووحدة مصير الكون:

ولعل ذلك الوعي الكوني، والروح الكونية الجديدة التي تعمقت في الآونة الأخيرة، نقصد بها هنا، ذلك الوعي وتلك الروح التي أخذت تتجه حول أفكار خاصة بالبيئة

والصحة العامة، ومسؤولية الإنسان تجاهها. فقد ثبت عمليا وعلميا أن إهدار الموارد البشرية والطبيعية، والتدمير الذي الحق بالبيئة وانتشار المجاعات، وأزمة التزايد السكاني في العالم،والهجرات السكانية الحادة، الجماعية والفردية منها، بفعل الإفقار أو الأزمات العرقية و الحروب و ظهور فيروسات جديدة لم تكن معروفة قبل مثل الإيدز كل هذا جعل العالم بشعر بوحدة مصيره و ارتباطه العضوي بالآخرين ممن يعيشون على نفس المركب أو السفينة الواحدة. فلم يعد يسمح لأحد بالعبث بمصير الكون أو إهمال مسؤولياته تجاه التدابير التي أقرها القانون الدولي، ومن ثم أصبحت مسؤولية مصير الكون مسؤولية جماعية يتحمل الجميع تبعاتها، ولا تسمح لأحد بالانعزال أو الانزواء داخل حدوده، ليس لأنها تجبر الجميع على هذا، ولكن لأن مراقبة الجميع للجميع أصبحت مصلحة وطنية عليا، من أجل الحفاظ على سلامة وأمان الداخل و من هنا تبرز أهمية تضافر دول العالم الثالث للعمل على شل حركات الشركات عابرة القارات، و الدول الصناعية الكبرى، والتي يخرق أغلبها هذا الإجماع الكوني لخدمة مصالح ماليها الكبار حتى و لو أدى هذا للكوارث التي نعاني منها ومنها تصدير الصناعات الملوثة للبيئة إلى عالمنا الثالث بحجة الإسهام في تحديثنا.و كلنا يذكر ما حدث في كارثة بوبال في الهند.

7- الاقتصاد الكوني الاعتماد المتبادل:

ظهرت في الآونة الأخيرة بعض الملامح لصياغة نظام كوني جديد يعتمد على التخصص، ويفتح الباب على مصراعيه للتنافس على الأسواق الدولية في أرجاء الكون، و عملت اتفاقيات الجات الأخيرة على أن تلتزم دول العالم المختلفة بالتوقيع عليها و إقرارها، مما سمح لأول مرة بوجود قواعد عامة تنظم الاقتصاد في العالم و تجبر دول العالم الموقعة على احترام هذه القواعد و من هنا أصبح الانفتاح على العالم مبدأ مفروضا من أعلى، وأصبح فرص الحصار الاقتصادي على الدول يشكل عقوبة صارمة لها، مثلما رأينا في العراق وليبيا وصربيا والسودان، بحيث أضحى التملص من الاقتصاد الكوني ضربة كبرى لكل الأنشطة الداخلية التجارية والاقتصادية، ورأينا توقف منظومة كاملة من المصطلحات التي ظلت مهيمنة على الخطاب الاقتصادي العالمي لعقود طويلة مثل: الحماية الجمركية، ووقف الاعتماد على الخارج، والاكتفاء الذاتي وغيرها.

ومن هنا فالانكفاء على الذات في الداخل –رغم استحالته- لن يحل تناقضات و ظلم هذا النظام الذي فرض علينا و لكن علينا التعامل معه بالتنسيق مع الدول الأخرى التي لحق بها الضرر، وبعضها دول أوروبية، ومعظمها دول العالم الثالث. علينا إشاعة حركة رفض جماعية تتسم أيضا بالكونية لتستطيع التعامل مع هذا النظام الكوني الجديد.

ما سقناه يبين أنه لا مكان لمن آثر الانزواء وانكفاء على ذاته، وعليه ينبغي التعامل بإيجابية مع هذه الحقائق و المستجدات. و مع هذا فالتعامل الإيجابي –كما أوضحنا-

ليس معناه قبول ما يفرض علينا، ولكن مشاركتنا الإيجابية معناها أن نعمل في ظل الظروف الجديدة لحسابنا الخاص، ومن أجل صالح شعوبنا. علينا أن نشارك في كل الحوارات الدائرة اليوم معبرين عن وجهات نظرنا في تلك الترتيبات الجديدة، مدافعين عن مصالحنا الحيوية بالتنسيق مع الدول التي أضريت في تحالف كوني غير مسبوق، مستندين في كل هذا على العقل و العقلنة.

8- رد الفعل:

هل ستدفع دول العالم الثالث فاتورة ما بعد الحداثة، كما دفعت من قبل فاتورة الحداثة؟ بلغ مثقفو العالم الثالث طوال القرنين الماضيين طعم الأيديولوجيا الغربي وتعاملوا معه كعلم و ذهب بعضهم إلى الإيمان الكامل بتلك الأطروحات، بل وإلى ترويجها في العالم الثالث، وساهمت تلك الأطروحات في أن تدفع شعوب العالم الثالث الجزء الأكبر من فاتورة الحداثة دون مقاومة كبيرة، و قد تم هذا سواء باستخدام نتائج العلم لتلعب دورا أيديولوجيا، كما تم عندما استخدمت نظرية التطور الدروينية، و هي: نظرية علمية كستار ايديولوجي لتبرير الاستعمار بحكم مبدأ التنازع على البقاء أو بالطرح الأيديولوجي السافر، و لكن داخل قوالب علمية كما تم على يد أرنست رينان 1823-1892 الذي بدأ بداية عنصرية عندما هم بتقسيم الشعوب إلى جنسين :أرى وسامى، واضعا الأوربيين في مرتبة أرقى من الساميين فيما يتصل بالحضارة و الفكر والفلسفة عندما ينفي أن يكون العرق السامي هو ما ينبغي لنا أن نطالبه بدروسه في الفلسفة. ومن غرائب النصيب ألا هذا العرق الذي استطاع أن يطبع على بدائعه الدينية أسمى سمات القوة-أقل ما يكون من بواكير خاصة به في حقل الفلسفة. و لم تكن الفلسفة لدى الساميين غير استعارة خارجية صرفة خالية من كبير خصب وفير وغير إقتداء بالفلسفة اليونانية.

أو في شكل أدبي شاعري كما نجده لدى الشاعر الإنجليزي كبلنج 1865 –1936 عندما أعلن أن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.

أو في شكل فلسفة التاريخ مثلما نجده عند أشبنجلر 1880-1936 الذي صور كل حضارة ككائن حي عضوي و ما ميلاد الحضارات ونموها قم أقوالها إلا عملية بيولوجية تشبه ما يحدث للكائنات الحية، و من هنا يفترض أن هذا السياق صالح لكل الحضارات. ومع هذا يرى أن لكل حضارة كيانها المستقل المنعزل تماما عن كيان غيرها من الحضارات كما يرى أنه لا سبيل لاتصال أية حضارة بأخرى مادامت كل حضارة تشكل وحدة مقفلة على ذاتها. ويعزو التشابه في الموضوع بين الحضارات إلى أنه تشابه ظاهري و لا يتعدى ذلك الظاهر للجوهر، مشددا على الطبيعة الخاصة التي تميز كل حضارة، ومن هنا يستبعد أن يمتلكها غير أصحابها بنفس الشكل و الكيفية، مستخلصا عدم وجود صلة بين الحضارات السابقة، واللاحقة عليها، مطلقا على الصلة التي يمكن أن نلاحظ بين الحضارات تعبير التشكيل الكاذب.

هذا التشكيك الواضح في وحدة الحضارة الإنسانية، و في إمكانية أبناء العالم الثالث في امتلاك الحضارة الحديثة نجده يظهر أيضا بنفس الوضوح عند مفكر غربي آخر هو توينبي1889-1975، الذي يرى في أطروحاته أن الشعاع الحضاري المتحرك لحضارة يتألف من تكنولوجيا وسياسية ودين...الخ. و يتحدد قانون أرنولد توينبي في انتقال الحضارات في أن قوة اختراق عنصر من عناصر الإشعاع الثقافي تتناسب عكسيا مع قيمة العنصر من الناحية الثقافية، إذ يثير العنصر التافه في الجسم المتعرض للهجوم مقاومة أقل مما يثيره العنصر الهام، حيث أن هذا الاختيار التلقائي لأتفه العناصر في ثقافة مشعة لنشرها على مدى أوسع في الخارج يشكل قاعدة سيئة الحظ للعبة الاتصال الثقافي. وهذا الاتجاه إلى التفاهة ليس أسوأ ما في اللعبة. فإن نفس عملية التحليل التي هي جوهر اللعبة تنذر بتسميم حياة المجتمع الذي تنتقل في كيانه الاجتماعي عناصر متعددة من شعاع حضاري مفكك. وتتعامل هذه النظرة الميكانيكية مع النمط الثقافي على أنه قالب يمكن حله وفكه ثم ربطه بحضارة أخرى بنفس الميكانيكية التقنية، إذ يغيب عن هذه النظرة جدلية العلاقة بين النمط الثقافي المنقول و الثقافة الجديدة عليه، إذ قبل دخوله وانتظامه في بناء هذه الثقافة عليه أن يتواءم و يتكيف مع أوضاعه الجديدة. هذا التكيف وهذا التواؤم يأتي بفعل الطريقة التي ينتقل بها، حيث غالبا ما يلبي حاجة في الثقافة المنقول إليها، مما يدفع هذه الحاجة للقيام بتنظيمه و تكييفه ووضعه في النسق المطلوب، ربما ليقوم بوظيفة أخرى جديدة عليه أو ربما يقوم بنفس الوظيفة مع بعض التعديلات الكبيرة أو الصغيرة. المهم حتى وإن كان عليه تأدية نفس وظيفته الأولى، فسيكون ذلك داخل نسق و علاقات أخرى جديدة جهز لتتواءم معها و قد أسهمت غياب الديالكتيكية من وجهة نظر توينبى في وضع تصوره السابق خارج الوعي الإنساني، بل وخارج التاريخ، حيث تفتقد رؤيته تلك البعد التاريخي، فلم تضع في اعتبارها تأثير وتأثر الحضارات ببعضها البعض، فغفلت عن الحضارات الإنسانية الأولى وتأثيرها على الحضارات التي قامت بعدها في العصور الوسطى أو تأثير الأخيرة على الحضارة الحديثة و التي تمثلت بدورها ما قبلها من حضارات. إذ قامت هذه الحضارات بفعل الدفع التاريخي و التمثيل الهاضم للحضارات، والذي ساعدت عليه الإنسانية جمعاء، وليس على هدم كل حضارة لما قبلها.

و لعل ظهور منتنجتون هذه الأيام حاملا مصطلحه الذي أشتهر به صدام الحضارات ما هو إلا تجديد لتلك الدعوات العنصرية المقيتة ضد الشعوب غير الغربية، خاصة عندما يؤكد وبنبرة تكاد تكون رسوليه تراجع العوامل الأيديولوجية و الاقتصادية التي حكمت صراع الشعوب قديما، مقيما صراع البشر في الحقبة القادمة على العامل الثقافي وحده. و هو بهذا يرفض التفاعل الحضاري ذلك الأس المكين الذي قامت عليه حضارات الدنيا منذ الخليقة هذه النظريات التي تفتقد أبسط قواعد العلم ساهمت لحد كبير في تعطل عمليات التحديث في العالم الثالث باسم العلم، ومن ثم ظل العالم الثالث بموارده و خيراته يستند الجزء الأكبر من فاتورة الحداثة الغربية على مدى قرنين من الزمان دون مقاومة كبيرة.

و اليوم اكتشف الغرب، في غمار اهتمامه بالتقدم و العقلنة، أنه نسى الإنسان، إذ غطت نزعة المرد ودية، و بروز العقل الأداتي على الذاتية، وانغلاق الثقافة على التقنية و الفعل الأداتي، و فصل المجتمع عن الدولة و تغيب الكائن التاريخي عن الإنسان، و بروز الصراع الاجتماعي في المؤسسات كمركز للقرار، واختلاط الصراعات الاجتماعية في الغالب بالصراعات القومية، و ظهور أفكار إحياء الهوية الثقافية وهو ما أدى إلى تفكك الحداثة التقليدية. اكتشاف الغرب لتلك المزالق جعله يفكر في مستقبله يفتح أفق جديد له "ما بعد حداثي" يحاول من خلاله الخروج من الأطر الحداثية التي أصبحت جامدة و كسر السياقات و القواعد الثابتة للإعتاق من التقنية و العقل الأداتي، و عمليات التنميط الثقافي و الصناعي و الفكري. وذلك لتخفيف مناخات الصرامة العلمية وحدة المنهج. وإفراط الترشيد و العقلنة و من هنا تلعب الدعوات السابقة نفس الدور الذي لعبته في السابق، إلا أن الخطورة هذه الأيام أن هذه الدعوات تجد في الداخل من يساندها ويشد من أزرها و يقوم بترويجها، إذ يجد الغربيون المحدثون اليوم في بلادنا مخرجا ما بعد حداثيا لهم يأتون إلينا ليتخففوا من صرامة وحدة العقل بمرونة وليونة الإحساس ما قبل الحداثة لدنيا، ومن إفراط العقلنة لسلام سذاجة ما قبل الحداثة، يلجأون إلينا ليخففوا من أعباء احترام المواعيد، واحترام إشارات المرور، والنظام العام، والتخطيط المسبق لكل شئ لديهم. ومن ثم تنشط لديهم هذه الأيام دعاوى أصولية للإبقاء على العالم الثالث كما هو، كما نلعب نظريات الأنتروبولوجيا الحديثة دورا أيضا غير مباشر في تثبيت هذه النظرة التي تعمل في الواقع على تكريس التخلف في عالمنا الثالث ليظل التقدم حكرا على الغرب وحده ويظل عالمنا بالنسبة للغرب هو الواحة التي يلجأ إليها ليكسر القواعد والنظم التي لا يستطيع أن يكسرها في بلاده. و الأخطر من هذا أن البعض من أصولينا يتبنى تلك الدعوة بصورة أخرى عندما يرى أن الغرب الذي وصل إلى التقدم والحداثة قد وصل لطرق مسدود، و عليه أصبح يهتم أكثر من أي وقت مضى بطريقنا المعيشية و الحياتية و النظمية و الدينية. ومن ثم علينا ألا نقلد الغرب في حداثته الغرب مسوغ لنا للتمسك بالماضي، و إعادة بناء الهوية الضائعة على أسس ماضوية تقوم في نفس الوقت بتكريس تخلفنا و لا تتجاوزه، بل و تعمل على أن تدفع شعوبنا مرة أخرى فاتورة ما بعد الحداثة كما دفعت من قبل فاتورة الحداثة.

وتظل تلك الأصولية الغربية الوجه من العملية التي تشكل الأصولية لدينا وجهها الأول. وليتفق مع د.صلاح قنصوه الذي يقول بحق أن الأصولية الغربية...تختلف عن الأصولية الإسلامية أو الشرقية بوجه عام، في أن الغربية تتخذ من السمات الفارقة القائمة في الحاضر أساسا، ثم تستدير إلى الماضي البعيد لإيجاد جذور قديمة لتفسير الحاضر .أما النزعة الأصولية لدينا، فإنها تجعل من الحاضر انحرافا عن أصل قديم جدا كان يمثل في نظرها العصر الذهبي لهذه الحضارة وينبغي إذن استعادته ليخلص لنا بريئا من كل شائبة دخيلة خارجية لهذه الحضارة.

وفي هذا الاختلاف بين النزعتين ترجع كفة الأصولية الغربية المزعومة في ميزان القوى لأنها تحيا عصرها الذهبي في حاضرها الفعلي الذي تحاول تبريره بالتاريخ القديم و علم الآثار. على حين ينشغل الأصوليون الإسلاميون بالتنقيب في الماضي

البعيد عن عصرهم الذهبي، تاركين مهمة قيادة العالم لمن يملكونه فعلا، و مقدمين لهم العون بضرب مخالفيهم من مواطنيهم و تخريب اقتصاد بلدانهم بكل همة وحماس(10).

9- إعادة تعريف الذات و مشتقاتها: خطوة في طريق الفهم

ربما تكون محاولة إفادة تعريف الذات و الأنا والفرد والشخص في مجتمعنا في العالم الثالث خطوة هامة، لتستطيع هذه المصطلحات أن تتضمن ما طرحناه، حتى لا تبقى الذات تصور مغلق بل تصور مفتوح على المستجدات الكونية، و حتى يتأتى لمفهوم الاستثناء الثقافي أن يتعمق معرفيا:

الذات-11-: لحظة تأمل أولى، و هي تعبير كل شامل يستمد فعاليته ووجوده من الإنسان كطبيعة بشرية إنسانية بيولوجية فطرية، تتسم بالوعي الداخلي و الوعي الخارجي المتمثل في تميزها –كذات إنسانية- عن أشياء و موضوعات الطبيعة.- و في الإطار تعتبر التقسيمات المعروفة مثل الذات المتعالية، والذات التجريبية، و الذات الجمعية عبارة عن وظائف و أدوار و مواقف لهذه الذات، لجأ إليها البعض كإجراء منهجي يسهل على الباحث دراسة هذه الذات من هذه الذات من هذه الوجود المتعددة، و من ثم يمكننا انتظار وظائف ومواقف وأدوار أخرى يمكن أن تنسب في المستقبل للذات، تبعا لحاجات البحث العلمي المتجددة.

لأنا: وتعتبر الأنا هي اللحظة الثانية من التأمل السابق، والتي تتمثل فيها الذات طبيعتها البشرية السابقة، و تحاول تأمل واقعها الخاص، من خلال طرح إشكالياته الخاصة اللصيقة بها، و هي تشكل مصدر القلق الدائم و المستمر وعلى هذا يكون "الأنا المتعالي"، و"الأنا المطلق"، و"الأنا التجريبية" عبارة أيضا عن لحظات داخلية تتقمصها الأنا أثناء رحلة تأملها للبحث عن حلول مناسبة لقلقها.

الفرد و الشخص:و سنضيف إليهما الفاعل Acteur، إذ في رحلة الأنا للبحث عن الحلول المناسبة يحيلها هذا الفعل Acte و من ثم يدفع الأنا إلى تتحسس مقومات هذا الفعل الذي يتأسس في نفس الوقت على شعورها بالفردية والشخصية، وبالتالي بكونها فاعل، وكأنها لحظة تأمل ثالثة تكتشف فيها الأنا ضرورة الحاجة إلى فرصة أناها و تصوراتها، أو تغيير واقعها وأنساقه المختلفة، وذلك لتستطيع مواجهة مشاكلها الخاصة و هو ما يحيل بدوره إلى الجسم.

ونرى أن هناك جدلية بين اللحظات الثلاث من الذات للأنا ثم للفرد و للشخص الفاعل و بالعكس، بحيث أن هذه الجدلية –في رأينا- مصدر التوازن في الذات، أي مصدر التوازن النفسي في الوجود البشري عموما، وأنه على تلك الصيغة الجدلية يتوقف الأداء النفسي. و لعل هذا التصور الجدلي الذي يجعل الطريق مفتوحا بين الفرد و الشخص الفاعل و بين الأنا وبين الذات ثم بين الذات و بين الأنا وبين الفرد و الشخص الفاعل، لعل هذا التصور يمكنه حل إشكالية إمكانية تواجد ذات كونية، و فكر كوني، حيثما تتفاعل الذات بفطرتها الإنسانية مع محيطها البيئي الايكولوجي، و محيطها الحقوقي الإنساني، ومحيطها المتصل بالثورة العالمية للاتصالات و التي

تعايشها دون انتقال عن طريق الصور المنقولة عبر الأقمار و الإنترنت الخ، و نفس الوقت سيحافظ على تلك الخصوصية الفردية و الجماعية التي تميز الأفراد و الجماعات، و تحافظ على الاختلاف و التنوع ضمن مفهوم الحضارة العالمية.

في هذا الإطار يمكن لمقولة الاستثناء الثقافي أن تجد لها سندا معرفيا نظريا يعبر عنها دون افتعال إيديولوجي حتى نستطيع تجاوز تخلف شعوبنا في العالم الثالث، وليس تكريس هذا التخلف بشكل مقصود أو بالنيات الحسنة.

الهوامش

1- Christian Compaz, La fin de l'humanisme est-elle inévitable ? Robert Lafont, 1994.

2- د. مجدي عبد الحافظ، الحداثة في مصر، بحث ألقى في CEDEJ 1996.

3- د. مجدي عبد الحافظ، إخفاق الحداثة في المنطقة العربية: بين التحليل و الاستلهام، رواق عربي.1998.

4- راجع السيد يسين، الوعي التاريخي والثورة الكونية-حوار الحضارات في عالم متغير،مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية، الأهرام، القاهرة،1995.

5- ارنست رينان، ابن رشد و الرشدية، مقدمة ط1.دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص 15.

6- نيفين جمعه علم الدين، فلسفة التاريخ عند أنولد توينبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991 ، ص58-63.

7- Toynbee A., The Word and West, Chap.V., Oxford-up., 1953.

8- د. مجدي عبد الحافظ، اتجاهات نظرية التطور في الفكر العربي المعاصر، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة باريس 10 مايو1991.

9- د. صلاح قنصوه، نزع القناع عن صدام الحضارات، الهلال عدد يناير 1997، ص43-51.

10- المرجع السابق.

11- د. مجدي عبد الحافظ، جدلية تخارج التراث، تكونها الاجتماعي و علاقته بالحداثة، بحث في ندوة قسم الاجتماع الثالثة بجامعة القاهرة، مايو 1996. □